***أمة العرب أمة العلم والمعرفة***

الأممُ كالأفرادِ، منهم من يولدُ ثم يموتُ، ولم يعرفْه أحدٌ؛ فما هو قدَّمَ شيئاً لا لذاتِه فيعذرُ، ولا لغيره فيذكرُ، كزهرةٍ نبتت ولكن في صحراءَ فارغةٍ من سبلِ الحياةِ والعمرانِ، فلم يرها أحدٌ ليشاهدَ جمالَها -إن وجد- ولم يلتفت لها عابرُ سبيلٍ ليشتمَّ عطرَها- إن كان لها عطر- ووجودُه في الحياةِ كمسِ الجنِّ لا يُحس، و آثار ما خلف أضعف من دبيب النمل؛ فما هو قد أصدر صوتاً فيُسمع، ولا خلف أثراً فيُستدل عليه به.
ومن الناس صنف آخر مباين تماماً لهذا الصنف الغابر.
صنف يحي ليبث في الأرض روح السعي، وليبني جسمان المعرفة، وليصنع سيف العلم ليشج به رأس الجهل.
فهئولآء وإن غطى التراب جثمانهم؛ فلن تستطيع أن تغرب الشمس عن ذكراهم، ولن تمحو بحار الأرض آثار جهادهم ونتاجهم.
لأنهم تركوا ما يُشغل ذهن العالم ببراعتهم؛ فأخبارهم تملأ سمع الزمان.
لهذا فعلى طول التاريخ وما حوى؛ لم يدوِّن بين سطوره فضلاً لأمة على البشرية كما دوَّن لأمة العرب وما صنعت.
وذلك لأن فضلها يفوق كل الأمم، بل يفوق كل الفضل.
وهنا أنا أعلم أنه قد تتمعَّر بعض الأوجه،- الآن- أو تتشقق بعض الآذان؛ وهذه المقولة تحاول أن تشُق طريقها نحو صدى قلوبهم لتجليه.
ولكنها الحقيقة التي حاول أن يثير حولها الشكوكَ كثيرٌ من أصحاب الأضضطغان، و أهل الزيغ؛ ولكن لمثل هئولآء لا يُعبأ.
فكلامهم مردود عليهم. يرده العقل، والمنطق، وتكذبه عين التاريخ، بل ويخسف قواعده معالم العلم التي شيدها العرب في جل المعارف. و إن كان لا عجب في أن يجول في صدور هئولآء مثل هذه الأحقاد التي توارثوها. إذ أن العرب كانوا فاتحين وحاكمين لكثير من البلدان؛ وهذا هو الداعي الذي يثير لدى هئولآء الحقد والغبطة علينا.
واعلم أن هذا ليس كلاما مرسلاً؛ بل إن ما خلَّفه الفرس أو الروم من اضطغان على العروبة و أهلها جلي واضح ينبيك عما يستشعر به أولئك الوشاه.
بل ولقد رأينا في كتب المستشرقين- إن صح إطلاق مثل هذا اللفظ عليهم -مدى محاولاتهم التعيسة لتزوير صورة العرب ومنهجهم في عين التاريخ- ولا عجب- ولكن هيهات هيهات .
إلا أن هناك بعض الاوربيين اللذين استطاعوا أن يغسلوا ضمائرهم ببعض ماء الحياء؛ فاعتزلوا كلام هئولآء الوشاة، وأقروا بفضل العرب على البشرية كلها.

ولكن ما أرُومه هنا وأقصد مبتغاه هو أمة العرب بل أمة العلم والمعرفة.
فلئن كان العرب قبل قيام دولتهم أهل بيان وفصاحة، فكذلك هم أهل العلم عند قيام دولتهم.
هناك:
في القرن السابع للميلاد قامت دولة العرب؛ والفساد يضرب بكلاليله جميع جوانب الأرض، والجهل يرخي سدوله على شتى بقاعها، وقد استحالت حضارة العالم شرقه وغربه إلى الفساد.
فحضارته تندثر تحت هوة الترف، و أخلاقه يتحكم فيها الشهوة، وعقائده تخور تحت قبة المصلحة والحاجة.
على هذا الطور خرجت أمة العرب؛ لتعيد للعالم الهيكلة، ولتضبط نظمه.
وفي هذه البقعة من التاريخ كانت إعادة صياغة مسار العالم أمر مستصعب- إلا على الأمم الموهوبة-  الموهوبة في تمكين المستحيل صورة الممكن. وهي هنا أمتنا؛ أمة العرب، أمة العلم، أمة المعرفة .
فهي هنا اختيرت لتجديد البنيان.
فلقد كان للعرب قوة تذهل العقول . والسر وراء هذه القوة لو نظرنا بعين صافية لوجدناه وراء سليقة الطبع، وحسن الجبلة ، و سلامة الصدر، ونقاء الفطرة .
فلم تتوحل بعد أيدي العرب في وَحْل الجهالة والفساد الذي ضرب على العالم سوطه .

ومساعي العرب لنشر العلم وتدعيم صَتْوَته معروف لا يُجهل ، وجلي لا يخفى،- وإن طأطأ الرأس جهول، أو أغمض عينه بصير -.
فلو بالت جموع الأرض في ماء الأرض ما لوث ،
ولو نبحت كلاب الغاب على البدر ما أُزعج ،
ولو أغمض العالم كله عيونه عن ضوء الشمس ما حُجب،
بل تبقى الشمس مضيئة كما هي، ولكنهم هم من رضوا لأنفسهم بالظلام.
والقول الحق: أن آثار العرب و أخبارهم، و أن العقول تقف تتكاتف على إثبات ما للعرب من حضارة وفضل على قُرَىٰ القاع والجهل.
فإن كان العرب هم من أنتجوا الشعر، فكذلك العرب هم من فتحوا للناس ميادين المعرفة والحضارة.